

هل يصح بناء الأحكام والاستراتيجيات على الرؤى؟

بقلم: عمر مبركي (باحث من المغرب)

١- إثبات الأذان برؤيا رآها صحابي هو عبدالله بن زيد رضي الله عنه.
٢- ما جاء في السنة من أحاديث منها ما رواه أبو سعيد الخدري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنها من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها» (٤) ومنها أيضا قوله ﷺ: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان» (٥).
ويجاب على حجته الأولى (٦) بأن رسول الله ﷺ أقر الصحابي بصحة رؤياه، كما أن ما رآه في منامه، منطوقه ومفهومه، لا يخالف حكما ولا يعارض معلوما في الدين، بل بالعكس فهو مشتمل على تعظيم الله وتقديسه، والشهادة لتبعية بالرسالة.
أما الحجة الثانية التي يستدلون بها، فيرد عليها بأن ما يشاهده الناس يصعب التصديق فيه حين ما كان رؤيا وبين ما كان حلقا.
وإذا قايلا بين أدلة الفريقين ووازننا بينهما انتهينا إلى المحصلة الآتية: أن رؤى الأشخاص لا تعد حجة شرعية، ولا يجوز بناء الأحكام عليها، ولا تأسيس الاستراتيجيات عليها.

وقد قرر الشاطبي رحمه الله مثل هذا في كلام جامع يصلح أن يكون قاعدة ذهبية في هذه المسألة، قال رحمه الله: «هذه الأمور، يقصد الرؤى القامية وما يشبهها من فراسة وإلهام، لا يصح أن تراعى وتعتبر إلا بشرط أن لا تخرم حكما شرعيا، ولا قاعدة دينية لأن ما يخرم قاعدة شرعية أو حكما شرعيا ليس بحق في نفسه، بل هو خيال أو وهم أو إلقاء شيطان وقد يخاطبه ما هو حق وقد لا يخاطبه، وجميع ذلك لا يصح اعتباره من جهة معارضته لما هو ثابت مشروع، وذلك أن التشريع الذي أتى به النبي ﷺ عام لا خاص وأصله لا ينخرم ولا ينكسر له أطراف ولا يتحاشى من الدخول تحت حكمه مكلف، وإذا كان كذلك فكل ما جاء من هذا القبيل الذي نحن بصدده مضادا لما تمهد في الشريعة فهو فاسد باطل» (٧).

الكواش

- ١- راجع على سبيل المثال الرسالة للإمام الشافعي ص: ٥٩٩، وأصول الفقه الاسلامي منهج بحث ومعرفة ص: ١٤.
- ٢- لكن هذا لا يمنع من القول بأن المؤمن مؤيد بالغييب، والرؤى الشرعية جزء من الغيب الذي قد يبشر المؤمن بقرب نصر أو هزب كربة، ولنا في المبشرات التي سبقت فتح مكة خير دليل.
- ٣- البحر المحيط ص: ١٠٦، ج: ٦.
- ٤- صحيح البخاري، كتاب التعمير، باب إذا رأى ما يكره فلا يخبر بها ولا يذكرها، رقم الحديث: ٢٥٨٢.
- ٥- صحيح البخاري، كتاب العنب، باب النصف في الرقبة، رقم الحديث: ٥٤١٥.
- ٦- راجع تفصيل ذلك في مدى حجبية الرؤيا عند الأصوليين، الدكتور علي جمعة، النهار للطبع والنشر، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- ٧- الموافقات في أصول الأحكام، ص: ١٩٤، ج: ٢.

ثمة أمر لا بد من إثباته قبل البدء في مناقشة تفصيلات هذا الموضوع، وهو: أن ثبوت الرؤى مسلم به لا يسمع أحدا إنكاره ولا التشكيك فيه، ولنا على ذلك الدليل القاطع من الكتاب والسنة، فقد حكى القرآن الكريم رؤى كثيرة منها: رؤيا إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: «فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين» (سورة الصافات، ١٠٢)، ورؤيا يوسف عليه السلام في قوله تعالى: «إذ قال يوسف لأبيه، يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين» (سورة يوسف، ٤)، ورؤيا صاحبي السجن في قوله تعالى: «ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أرى أني أعصر خمرا وقال الآخر إني أرى أني أحمل فوق رأسي خيزرا تأكل الطير من نبتنا يتأويله إذا تراءى من الحبسين» (سورة يوسف، ٣٦) ورؤيا النبي ﷺ يوم بدر في قوله تعالى: «إذ يريكم الله في منامك قليلا» (سورة الانفال، ٤٣)، ورؤيا النبي عليه الصلاة والسلام في الحديدية في قوله تعالى: «لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنتين محلضين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا» (سورة الفتح، ٢٧)، أما الأدلة من كلام المصطفى فهي كثيرة بالمئات، هذا من الناحية التأصيلية.

وأما آخر نقطع بوجوده كذلك ونسلم به وهو: أن الرؤيا تصلح أن تكون مباشرة أو محذرة، وتصلح أن تكون محفزة للعمل الصالح، كما تصلح أن تكون مؤكدة لحكم من أحكام الشرع.

هذه كلها أمور مسلم بها، سارية على أئمة العلماء بلا اعتراض لكن ممكن الخلاف، ومبعث الإشكال يكمن في السؤال الآتي: هل الرؤى تصلح لأن تبني عليها الأحكام وتؤسس عليها الاستراتيجيات والخطط؟ وهل تصلح أن تنهض دليلا شرعيا عند غير الأنبياء؟ ذهب أكثر علماء الأصول إلى أن الرؤيا ليست دليلا شرعيا، ويستدلون لذلك بأدلة عديدة منها:

- ١- من المعلوم أن الأدلة منها ما أجمعت الأمة على حجيتها، وأطبقت على دلالتها على الأحكام، وانضقت على قبوله، ومنها ما اختلف فيه (١)، وإذا دققنا النظر في الأدلة المعتبرة عند أهل الأصول وجدنا أنهم لا يعدون الرؤيا دليلا شرعيا.
 - ٢- أن الرؤيا المنامية صادرة عن نائم، والثالث لا يمكن أن يعتد بما رآه فهو ليس من أهل التحمل لأنه لا يحفظ غالبا ما يراه في منامه.
 - ٣- أن لا شيء يقطع بكون الرؤيا من الله أو من الشيطان، ولذلك فهي مبعث للخلاف وتسرّب الشكوك... فهي إذا من الأمور المظنونيات التي لا تصلح أن تنهض دليلا يحتج به في استنباط الأحكام، ولا في بناء الخطط والاستراتيجيات، إذ كيف يمكن أن يؤسس على أمر ظني كهذا أمور عظيمة كذلك؟ (٢).
- وبالرغم من قوة الأدلة أعلاه، وهي أدلة جمهور الأصوليين، فإن بعض العلماء على قلتهم ذهبوا إلى عكس ما اثبتناه، منهم الأستاذ أبو إسحاق الأسفرائيني، قال الزركشي في البحر المحيط موردا قول الأستاذ: «رؤيا النبي ﷺ في النوم، على وجه حكاه الأستاذ أبو إسحاق يكون حجة، ويلزم العمل به، وقد سبق فيه مزيد بيان في صدر الكتاب، والصحيح أن المنام لا يثبت حكما شرعيا، ولا بينة» (٣).
- ويستدل أصحاب هذا المذهب من القائلين بحجبية الرؤى بحجج أهمها: